الفصل الثالث

الجبهة اللبنانية السورية .. و انتصار خيار المقاومة

obeikan.com

obeikan.com

المبحث الأول

تحرير الجنوب اللبنانى بإرادة المقاومة

رحل العدو الإسرائيلى من الجنوب اللبنانى بغير استئذان أو اتفاق، وبدون قيد أو شرط، وذلك قبل الموعد المعلن من جانب الحكومة الإسرائيلية فى ظل السيد / باراك بنحو شهرين تقريبًا.

وقد شكك البعض فى أن إسرائيل لن تنسحب أساسًا إلا بشروط واتفاقات أمنية أو فى ظل مناورة على الجولان السورية من النواحى الأمنية أو الترتيبات المشتركة.. إلخ. إلا أن هذه الشكوك بددها الواقع الذى رأيناه وعشناه فشاهدنا انسحابًا إسرائيليًا مخزيًا وقد خلَّف وراءه عارًا لا يمكن نسيانه على الإطلاق. وقد نقلت عدسات الأقمار الصناعية الجنود الإسرائيليين وهم يهرولون إلى داخل الحدود الإسرائيلية، وغير عابئين أو مهتمين إلا بأنفسهم. كما لاحظنا عدم الحماية الإسرائيلية لجنود الجيش اللبنانى العميل، وتركوهم لمصيرهم ليقعوا فى داخل السيطرة اللبنانية ليحاكموا بتهمة الخيانة والعمالة.. إلخ بدلاً من تحمل أعبائهم المعيشية والأمنية. ولا شك فى أن هذا جزاء من باع نفسه ضد وطنه من ناحية، وإثبات بأن إسرائيل لا تحمى عملاءها من ناحية أخرى. وهذا درس لكل من يفكر فى خيانة بلاده، وأن العدو هو العدو مهما أظهر غير ذلك. ثبت أن إسرائيل استطاعت أن توظف هذا الجيش العميل لحسابها طوال السنوات الماضية حتى أصبح وجودها وأصبح هذا الجيش فى الجنوب اللبنانى عبئًا لا يمكن احتماله.

* وقد يتساءل البعض لماذا قررت إسرائيل ونفذت هذا الانسحاب المخزى دون ترتيبات أو حتى مجرد ثمن بسيط يقضى بالانسحاب المشرف والذى تقضى به الأعراف الدولية؟! والإجابة عن هذا السؤال هى محور المقال. فالواضح إذن أن إسرائيل ما كانت تقرر مثل هذا الانسحاب أو إعادة النظر فى أمر مستقر إلا إذا توافق ذلك مع مصلحتها من ناحية، أو كان هذا الشىء قد أصبح عبئًا عليها لا يوازيه وجودها. بعبارة

أخرى فإن الثمن الذى تدفعه إسرائيل نتيجة وجودها فى هذه الأرض اللبنانية المحتلة، أكبر بكثير مما يمكن أن تحصل عليه من جراء وجودها. فضلاً عن ذلك فإن هناك إصراراً كبيراً ومتواصلاً من جانب الطرف اللبنانى فى مقاومة هذا الوجود، الذى لم تعد تفلح معها أى اعتداءات عسكرية على المدنيين لإجهاض قدرتهم على المقاومة، أو على العسكريين وحزب الله ومناطق عسكرية لإضعافهم وشل قدرتهم على المقاومة أيضًا. وقد قاد ذلك العقل الاستراتيجى الإسرائيلى إلى مراجعة الأمر بسرعة تجنبًا لمزيد من الخسائر والاستنزاف المادى والمعنوى، وكان الانسحاب ترجمة لهذه المراجعة بلا تردد.

وعلى الجانب الآخر، وبعيداً عن توجهات المقاومة اللبنانية، فإن هذا الانتصار الساحق الذى يشبه زلزال أكتوبر ١٩٧٣م، قد أفصح عن أن إرادة الأمة العربية ما زالت حية وقلبها ينبض. وأن كل المحاولات المستميتة من جانب دعاة «ثقافة السلام»، والتى لا تخرج عن كونها دعوة لتكريس «ثقافة الاستسلام»، قد أخفقت عن النيل من إرادة هذا الشعب الأبى الذى يحمل فى أحشائه قدرة على الصمود ومخزونًا نضاليًا كبيراً يستمد قوته واستمراريته من معين التاريخ وفلسفته، وجغرافية الموقع وعبقريته.

فإسرائيل لا تحترم إلا منطق القوة، وترى هذا المنطق هو أساس وجودها، وإذا جردت من قوتها فقدت شرعيتها وفلسفة نشوئها. كما أن الذين يتعاملون معها لا تعيرهم اهتمامًا يذكر، أو تأخذهم فى الحسبان إلا إذا هددوا باستخدام القوة، أو لوحوا بذلك صراحة أو إشارة أو ضمنًا. وهى تثبت من واقع تصرفاتها سلامة مصطلح «ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة». فالمحتل الغاصب كالسارق، يسعى للاستمتاع بما استطاع أن يستولى عليه، ولا يمكن التنازل عن شىء مما اغتصبه إلا إذا تمت مقاومته بالقوة.

وإسرائيل هى ذات النموذج، لم تدخل خندق المفاوضات مع الفلسطينيين إلا تحت ضغوط أطفال الحجارة وانتفاضتهم الشهيرة. ولم تدخل فى مفاوضات السلام مضطرة مع مصر إلا بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣م، ولم ترحل من الجنوب اللبنانى أخيراً إلا تحت ضغط واستمرارية المقاومة اللبنانية. وهذا هو الدرس الذى يجب أن نتفهمه فى التعامل مع إسرائيل. فالحصول على أقصى المكاسب من المفاوضات مع إسرائيل، لا يمكن أن يتحقق إلا من التلويح بالقوة والعنف وإشعار إسرائيل بالقدرة على تنفيذ ذلك. وحتى

يمكن لإسرائيل أن تعيش فى هذه المرحلة من «صراع السلام» فى المنطقة، فإن عليها أن تتجنب الدخول فى دوامة العنف التى لا يعرف أحد مداها عندما تشتعل.

فالتفكير المستمر فى محاولات إجهاض إرادة الأمة العربية، ومحاولات ترويض الأمة على أن يتجرع أبناؤها «ثقافة الاستسلام» المسماة بـ «ثقافة السلام»، ومحاولات تطويع مستقبل الأمة لسلام غير آمن وغير عادل وغير شامل، مآله الأخفاق. فالمخزون الاستراتيجى من ثقافة المقاومة لدى شعوب هذه الأمة كبير ولا ينضب، حتى لو تصور البعض من أصحاب القلوب المريضة أن إرادة الأمة قد انتهت، وعلينا أن نترحم عليها ونذهب بها إلى المقابر!! إن ثقافة المقاومة هى البديل الموازى لثقافة الخنوع والاستسلام ولا تعنى ثقافة المقاومة إعلان الحرب على إسرائيل أو غيرها. ولكنها تعنى قدرة على الصمود والمواجهة واليقظة أمام العدو الذى لا يغفل أبدًا. إنها قدرة على أن تظل إرادة الأمة حية ومستقلة وحرة أبية.

لقد استطاع «لبنان» - البلد العربى الصغير - أن يجسد فكر المقاومة بإرغام إسرائيل على هذا الانسحاب المخزى الذى لن ينساه التاريخ. وأضاف لبنان وأبطال المقاومة تجربة جديدة وحية تعين الأمة على الصمود ومواجهة التحديات فى ظل عالم لا يرحم الضعفاء ويساعد الأقوياء وينحنى مجبرًا أمام المقاومة. وأخيرًا تحية لك أيها المقاتل العربى الذى قدّم حياته فداءً للوطن.

***

المبحث الثانى

حصاد العرب فى «قانا» وكسر الاستسلام(*)

الوضع قد ازداد مأساوية فى عالمنا العربى - إن شئنا أن نسميه هكذا - لأننا نحب أن نسميه بعالم عربى، ولكن بكل أسف فالواقع يشهد بأنه لا يوجد فعلاً ما يعكس هذا الوجود لهذا «العالم العربى». وبرغم أن الجغرافيا تعكس تقارب المساحات والشعوب الناطقة باللغة العربية، فإن الواقع يشهد تناحراً فى المصالح، ومن ثم فإن التاريخ الذى يعكس مرآة الزمن بأطواره المختلفة هو الذى نعيش فى هيامه أننا أمة واحدة وشعب واحد وتاريخ واحد!!

وهذا لا بأس به فالوجدان لا بد وأن يمتلئ بمجموعة من الاقتناعات حتى إن ظهر الفعل فى أرض الواقع «يصبح» له تجسيداً حيّا وقبولاً جماهيريّا. ودون الدخول فى متاهات قد لا يرضى بها القارئ أولا تشبع زاده، فقد يشعر بالمأساة كل من تابع المجزرة الإسرائيلية التى استمرت لمدة (١٦) يومًا متواصلة على قرى لبنان وبخاصة قرية «قانا». وفى الوقت الذى تم تدمير منازل المدنيين وسكانها من أطفال وشيوخ ونساء وشباب، فقد تم تدمير مركز الأمم المتحدة عن آخره. وفى آخر تقارير الأمم المتحدة المنشورة فى واشنطن أن أحد العاملين فى مركز قيادة قوات الأمم المتحدة فى لبنان قد أبلغ الإسرائيليين قبل الهجوم بأن قرية «قانا» بها مدنيون وحذرهم من الهجوم عليها تحت أى مبرر. وبالتالى فإن هجوم الإسرائيليين على المدنيين كان متعمداً، وبالمناسبة فإن تصريح الأمم المتحدة هذا قد أغضب الإسرائيليين وأغضب الأمريكيين وسبب نقد الأمين العام للأمم المتحدة واتهامه بالتحيز للعرب واللبنانيين بل والمسيحيين، وارتفعت أصوات لاستبداله فى المرة القادمة!!

وقد راح ضحية هذا الهجوم الاستفزازى الإسرائيلى على لبنان على مدار (١٦)

(*) لم تنشر، وتمت كتابتها فى ٨ مايو ١٩٩٦م.

يومًا، ما يقرب من (١٠٠) قتيل، وأكثر من (٥٠٠) جريح وتدمير آلاف المنازل، ولم تقدر الخسائر الاقتصادية والنفسية والاجتماعية بعد. والسؤال هنا الذى نبحث عنه فى هذا المقال هو: هل أصبحت الأرض العربية مستباحة فى أى لحظة يفكر فيها العدو الإسرائيلى؟ ثم ما عقاب جريمة هذا الاعتداء الإسرائيلى الغاشم، وجزاء قائد إسرائيل الملقب بصانع السلام وهو الآن صانع المجزرة؟ هل يمكن أن يفلت بجريمته دون محاكمة؟ هل يتذكر أحد إحدى الفدائيات وهى تُحاكم الآن فى ألمانيا بتهمة خطف طائرة ألمانية فى السبعينيات إلى الصومال رغم محاكمتها فى الصومال وسجنت لمدة عامين ثم أفرج عنها وانتهى الموضوع، وهى فدائية فلسطينية؟ ومن يجرؤ إذن على المطالبة بمحاكمة بيريز الذى تسانده أمريكا بكل ثقلها فى هذه الفترة بحجة أنه من أنصار السلام، ودون أى توجيه نقد له أثناء هجومه على لبنان؟! كذلك، ما حجم الحصاد العربى فى هذه العملية الموجهة لجسدنا والطاعنة له بخنجر مسموم دون أن نشعر على ما يبدو بآلام؟!

* والحقيقة المرة التى أصبحت واضحة أمام الجميع، أن إمكانات الآخرين للعمل على مسرح الأرض العربية أكبر وأن فعل الآخرين أكبر وأن مساحة حرية حركتهم أكبر، وأنه لا تقارن بأى حال بإمكانات حركتنا أو فعلنا فرادى أو حتى فى حالة التنسيق - عندما يحدث فى حالة الضرورة. كما أن رد فعلنا بطىء، ولا يحدث إلا بعد وقوع الكارثة، وهذا الاستخلاص نابع من الدروس والعظات التى نجمت عن أزمات كثيرة، هاج فيها العقل العربى وبعض صانعى القرار من باب الحياء، واجتمع البعض، وقد ينفض الاجتماع قبل عقده عندما تجىء رسالة من العم سام تطيب خاطرهم - إن لم تكن بقصد الضحك عليهم أساسًا - فهل يتذكر أحد، هجرة اليهود السوفييت إلى إسرائيل، وماذا تم فيها؟! الآن وصل تعداد إسرائيل الرسمى فى ١٩٩٦م إلى ما يقرب من (٦) ملايين ولم يكن عددها فى عام ١٩٩٠م يتعدى ٢,٥ مليون!!

وهؤلاء يفرضون عليك واقعًا!! هل يتذكر أحد مذبحة الحرم الإبراهيمى بالقدس وماذا تم فيها؟! حيث يتباكى الإسرائيليون على عدد منهم فى انفجار أتوبيس ويدمرون إزاءه مدنًا كاملة!! وهل تتذكرون تهويد القدس وشراء الأراضى من الفلسطينيين لصالح اليهود ونزع الملكيات الفلسطينية وثار العرب ودعوا لاجتماع قمة محدود ثم ألغى لمجرد رسالة أتت من العم سام وقرار إسرائيل بإيقاف «مؤقت» - لاحظوا مؤقت -

للموضوع. على الرغم من استمرارية إسرائيل فى تحدى الرأى العام والعرب والعالم الإسلامى بأن القدس هى عاصمة إسرائيل وستظل موحدة وخاضعة لها، ولذلك فهى تسير فى قراراتها بهدوء!! ثم نجد الأردنيين ينطلقون بسرعة الصاروخ فى التطبيع وكأنهم وحدهم فى الساحة دون إدراك أن القرار الأردنى جزء من القرار العربى. كذلك نجد قطر تستقبل بيريز وقبلها سلطنة عمان وتونس والمغرب.. أى أن عدداً من العواصم العربية، وبغض النظر عن أى ضغوط خارجية للإجبار فى التعامل مع إسرائيل فإنه فى اللحظة نفسها التى كانت إسرائيل تضرب لبنان، فإن أراضى عربية كانت تستقبله، إلى حد أن ياسر عرفات كان يجتمع للنظر فى تعديل ميثاق المنظمة!! فكيف ننظر إلى الصورة العربية؟ أليست بحق صورة مأساوية؟! كما نجد أن الرئيس ياسر عرفات يرى أن دخوله البيت الأبيض هو مكسب كبير نتاجًا للنظر فى تعديل ميثاق المنظمة، فى اللحظة نفسها التى صرح فيها كلينتون بأن أمريكا لا توافق على قيام دولة فلسطينية مستقلة!!

فى هذه الصورة «الميلودرامية» ألا يحق لإسرائيل أن تعتبر أرض العرب فى أى لحظة لها أرضًا مستباحة تدخلها وقتما تشاء، وتضربها وقتما تشاء وستظل دائمًا خسائرها محدودة؟! بالطبع نعم. إن بيريز فكر فى ذلك - أى فى ضرب لبنان لتحقيق عدة أهداف، منها إشعار العرب جميعًا بعجزهم وأن إسرائيل هى الأقوى فى المنطقة، وثانيًا تخويف سوريا من خلال إحراجها مع لبنان، وورقة حزب الله وقد لا يكون موفقًا فى هذا إلى حد بعيد قد تحدث فتنة فيما بعد، فضلاً عن إحراج مصر باستثمار مؤتمر «شرم الشيخ» بإعطائه الضوء الأخضر - أى لإسرائيل - فى ضرب الإرهاب ومن نماذجه حزب الله كما جاء على لسان بيريز فى حديثه لشبكة «CNN» خلال غارات إسرائيل على لبنان، حيث إن مصر أعلنت أن المؤتمر هو قمة صانعى السلام وليس للإرهاب!!. وأخيراً فقد أراد فى المعنى الأخير أن يحل مشكلاته الداخلية فى الانتخابات لترجيح كفته على الليكود على حساب العرب بضرب أضعف الحلقات فى لبنان!!

والسؤال ماذا كان رد الفعل العربى؟! لا يستطيع أحد أن يزعم أن هناك فعلاً عربيًا استطاع أن يجعل أحداً يتحرك فى العالم. إن النقد اللاذع نتيجة ضرب إسرائيل للمدنيين من الرأى العام الدولى كان أسبق من الموقف العربى فى الضغط على أمريكا التى أجبرت على تغيير موقفها من مساندة علنية لإسرائيل إلى مطالبة إسرائيل بوقف

الغارات وإرسال كلينتون لوزير خارجيته إلى المنطقة وسيطًا للوصول إلى اتفاق بشأن ذلك، وهو ما تم فعلاً بعد مجازر ١٦ يومًا، كما أن هناك وسيطًا فرنسيًا وجهودًا مشتركة؛ وهذا دور طبيعي لفرنسا في الشام عمومًا ولبنان خاصة، ولكن هناك اهتمامًا فرنسيًا في عهد شيراك بالوطن العربي ظهر في هذه الأزمة، وتحركت فرنسا باهتمام بحكم مصالحها في المنطقة. لكن «وزراء الخارجية» العرب اجتمعوا في الجامعة العربية وتعاركوا بالكلام ولم يصلوا إلى شيء، والحال بكل أسف يندى له الجبين والشعوب في ضيق وضجر مما يحدث!! ففي واشنطن دعت الجاليات العربية إلى مظاهرة للاحتجاج لدى البيت الأبيض على ما يحدث من إسرائيل، وبمجمع نحو ألفين من العرب فقط!!، وبالمناسبة فإن عدد العرب - حسبما سمعت هنا في واشنطن - قد يصل إلى ما بين (٣ - ٥) ملايين ولكن الوزن النسبي والسياسي لهم لا يذكر، وهو ترجمة لوزنهم في المنطقة العربية بكل أسف!!

* فالحصاد العربي إذن مرير، والأرض العربية مستباحة أمام الإسرائيليين في أي لحظة سواء عقدت معاهدات سلام أم لا.. فهي أمور ورقية لكن القوة هي القوة في النهاية!! والفعل العربي غير موجود وغير مؤثر بالتالي، والمواقف الرسمية مخزية وليست لها أي تبريرات وغير مقبولة، والأمر يحتاج إلى فك هذا الحصار لأن المنطقة لا يمكن لها أن تظل هكذا في وضع السجين مدى الحياة، ولذلك فإن الأمل يحدونا دائمًا أن ينتصر العقل وخياراته في ترجيح الخطوات التالية:

* وقف خطوات التطبيع مع إسرائيل من أي دولة عربية بخاصة دول الخليج والأردن، إلى حين الانتهاء من الانسحاب من سوريا ولبنان التزاما بقرارات جامعة الدول العربية والشرعية العربية.

* عدم تمكين ما يسمى الشرعية الدولية من الشرعية العربية ممثلة في الدول الثلاث (ليبيا والعراق والسودان) حتى لا يزداد الحصار الدولي الغربي للمنطقة العربية ويزداد إذلالها تاريخيًا أكثر من ذلك؛ لأن هذا يضر بالأمن القومي العربي ويرجح من كفة إسرائيل. مع ممارسة الضغط عربيًا على هذه الأنظمة الثلاثة، لعدم الوقوع ثانية في ذلك الشرك الدولي.

* الإفصاح عن موقف عربي موحد إزاء ما يسمى بالشرعية الدولية الازدواجية التي

تسمح بتجريم العرب دون تجريم الإسرائيليين، كما حدث أخيراً فى لبنان حيث لم يصدر قرار إدانة لإسرائيل، بينما الإدانات المتتالية للعرب فى مواقف عديدة ضد ليبيا، وضد جماعة حماس، والعراق والسودان.. إلخ، ومحاولة فك حصار عربى محدود على ليبيا والعراق بخاصة على المستوى العربى للضغط على النظام الدولى. فهل يمكن السماح من جانب أمريكا للإسرائيليين بأن يمتلكوا السلاح النووى والكيمياوى، ويرفضوا الكيمياوى لليبيا ويهددوا بضربها بافتراض صحة المعلومات!! هل هذا عدل؟!

* تعميق العلاقات مع أوروبا لإحداث التوازن فى العلاقات الدولية بما يسمى بالبديل الأوروبى أو الخيار الفرنسى (شيراك) أو الخيار الألمانى (كول)، وهما يسعيان لإثبات وجودهما فى المنطقة. وقد أثبتت فرنسا أن لها رغبة فى ممارسة ذلك خلال أزمة قانا الأخيرة. وكذلك تعميق العلاقات مع الصين تلك القوة والقطب القادم كبديل جديد.

* أن اليوم، قبل الغد، يستدعى اللحاق بالأحداث وتجاوزها وضرورة أن نتعلم الدرس ولا نتغافله. فالمنطقة العربية معرضة لحصار أبدى، فإن لم ندركه ونحاول فك قيوده بسرعة والإفلات منه وتنمية منطقتنا، فإننى مع كثيرين أخشى ما أخشاه أن تخرج الأمة العربية ـ صانعة الحضارة. من التاريخ، لفترة طويلة يعلم الله مداها.

* * *

المبحث الثالث

التصعيد الإسرائيلى واستمرارية المقاومة (*)

المتتبع للأمور والأوضاع فى المنطقة العربية ولمسيرة السلام العربى الإسرائيلى فى هذه الآونة، يلحظ انكسارة شديدة فى الموقف العربى لم نعش لحظات مماثلة لها من قبل. فقد ارتفعت حدة التوترات بين إسرائيل وسوريا، وإسرائيل ولبنان، وإسرائيل وفلسطين.

كما أنه لوحظ خطابات التهديد من جانب إسرائيل تجاه مصر، مما يبعث على القلق فى هذه الظروف على وجه التحديد. وبلغت هذه التوترات ذروتها من خلال القصف المتزايد والمكثف للطيران الإسرائيلى ضد لبنان بصورة غير مسبوقة نتج عنه المزيد من الدمار للبنية التحتية وبخاصة الكهرباء والمياه والمبانى السكنية، وراح ضحية ذلك عشرات من المدنيين اللبنانيين بين جرحى وقتلى. ولم يوجد من بين أهل «العروبة» الأفاضل من يهب للدفاع عن لبنان حتى «بالحناجر لا بالسيوف»، وهذه هى المأساة التى تبعث على السخرية، وتثير فى النفس هواجس تتعلق بمستقبل هذه الأمة المنكوبة والمغلوبة على أمرها كما يخططون لها، فيما بعد «التسوية العرجاء» بين إسرائيل وجيرانها.

فواحسرتاه على هذا الزمن الردىء.. الذى تقوم فيه إسرائيل بالعدوان المستمر على لبنان دون رادع، ودون وجود من يرد، وكأن إرادة الأمة العربية قد أممت، إن لم يكن قد انتزع عنها سيف الرجولة والشهامة!!

وها هو ذا السيد باراك الذى يظهر دائمًا مبتسمًا ابتسامة الأطفال يتحدى ويعلن أنه سيستمر فى ضرب لبنان حتى تخضع إرادتها ويجلس السوريون إلى مائدة المفاوضات مطأطئ الرءوس!! وها هى الولايات المتحدة راعية السلام فى المنطقة، تقوم بمساندة

(*) نشرت فى جريدة «الأهرام»، فى ١٥ فبراير ٢٠٠٠م.

إسرائيل وتأييدها فى عدوانها على لبنان بحجة أنها تدافع عن نفسها فى مواجهة حزب الله الذى يعد العقبة الأخيرة أمام عملية السلام!! نعم، إنهم يطالبون بوأد آخر صفحة فى كتاب «إرادة الأمة المنكوبة»، أى يطالبون بالقضاء التام على «حزب الله» فى لبنان. وبرغم اختلاف التوجهات مع هذا الحزب، فإن المحلل السياسى سيقف أمام هذا الحزب وقدرته على الصمود فى وجه إسرائيل، والتصدى لكل الهجمات العدوانية التى تقوم بها إسرائيل وتمارس من خلالها السياسات العدوانية ضد المنطقة العربية، وتؤكد بالتالى أن السلام المنشود هو السلام الإسرائيلى الذى تنحنى أمامه الأطراف العربية دون إرادة. لا شك فى أن مشاهدة هذا الحدث العدوانى الضخم لإسرائيل والذى بات مشهداً مستمراً دون رداع، يؤكد بلا أدنى شك أن عملية السلام مهما شهدت من تطورات فإنها فارغة بلا مضمون حقيقى، ولا تشير إلى وجود نوايا طيبة لدى إسرائيل تجاه المنطقة العربية.

وإذا حاولنا تحليل هذا المشهد العدوانى المتكرر والذى يستهدف إخضاع إرادة الأمة، يمكن القول بالآتى:

* إن التصعيد الإسرائيلى ضد لبنان هو تصرف متعمد من جانبها، تريد من خلاله إرسال رسالة إلى كلّ من سوريا ولبنان للجلوس معًا وبسرعة إلى مائدة المفاوضات.

* إن الصراع السورى الإسرائيلى يجرى على أرض الجنوب اللبنانى بحجة وجود قوة معوقة لعملية السلام تتمثل فى حزب الله. وبالتالى فإن مشهد استعراض القوة وخلل موازينها أصبح واضحًا فى ظل معادلات مضطربة، ومعطيات متعارضة.

* إنه بالقدر الذى تمارس فيه سوريا قدراً أكبر من المناورة، وكسب الوقت واستعراض ورقة ضاغطة تجاه إسرائيل هى حزب الله وقدرته على الحركة داخل الحدود الإسرائيلية وإثارة الفزع بين سكانها فى الشمال، بالقدر الذى تبادر إسرائيل بالرد على هذا التوظيف السورى لحزب الله، بالرد العدوانى واسع النطاق لإضعاف هذه الورقة فى يد سوريا وإظهارها غير قادرة على الرد المباشر على إسرائيل.

* يسعى كل طرف (سوريا وإسرائيل)، على تعظيم أوراق الضغط التى يمتلكها، وتقوية موقف كلّ منهما التفاوضى للحصول على أقصى المكاسب، بخاصة منذ توقف

المرحلة الثانية من المفاوضات فى العاشر من يناير الماضى، ولبنان تبدو وهى الوسيلة والهدف لتحقيق ذلك.

* يأتى هذا التصعيد فى ظل فشل «دينيس روس» منسق عملية السلام من جانب الولايات المتحدة، فى الوساطة بين الفلسطينيين وإسرائيل، فى الوقت الذى ساندت فيه الولايات المتحدة إسرائيل فى عدوانها بحجة ضرورة كسر شوكة آخر عقبة فى طريق السلام فى «الشرق الأوسط».

* وهذا يثير بدوره علامة استفهام كبرى حول «السقف النهائى» لهذه التصرفات العدوانية من جانب إسرائيل، فهل وصلت إلى نهايتها أم هى قابلة للتكرار لحين تحقيق أهداف إسرائيل فى فرض سلامها، وتمكين هيمنتها؟ أعتقد أن مسألة التكرار واردة، وأن الدعوة الأمريكية على لسان كلينتون ووزيرة خارجيته (أولبرايت)، بضرورة عودة سوريا وإسرائيل إلى مائدة المفاوضات بسرعة، هى الرسالة الواضحة بأن هذا هو الهدف من العدوان الإسرائيلى، وأيضًا الهدف من التوظيف السورى لحزب الله فى مواجهة إسرائيل. ولا ننسى استطاعة حزب الله اغتيال «هاشم عقل» الرجل الثانى بعد «أنطوان لحد» قائد الجيش اللبنانى العميل لإسرائيل على الشريط الحدودى فى الجنوب اللبنانى. ومع اشتداد العدوان الإسرائيلى تشتد المقاومة اللبنانية وتلحق خسائر لدى إسرائيل وقواتها، إلا أنها كالغريق فى وسط البحر يحاول الحركة ولكن سيظل بعيداً عن الشاطئ!!

* كما يشار إلى أن آفاق هذا السلوك العدوانى تظل مرتبطة بدور مصر الفعال وظهيره العربى. فالدور المحورى لمصر فى عملية السلام وترتيب المنطقة فى المستقبل هو دور ما زال منتظرا أو يتسم بالحيوية فى حالة تمكن الديبلوماسية المصرية من تحريك الموقف العربى وحشده تجاه قمة عربية طارئة للنظر فى التردى والإنقاذ ووقف التدهور فى الموقف العربى ودعم المفاوض العربى السورى والفلسطينى وبرغم كل المآسى، وما نواجهه فى لبنان التى تتحمل أعباء كبرى من جراء الصراع العربى الإسرائيلى، فإن الأمل فى غد أفضل ما زال قائمًا برغم القتامة التى تظهر حاليًا. إن التهديد بالشجب والإدانة والاستنكار، ليس مجديًا لوقف التداعيات السلبية لمثل هذه التصرفات العدوانية من جانب إسرائيل تجاه لبنان والفلسطينيين معًا. فهل من تحرك عربى جاد وسريع هذه المرة.. نأمل يارب!!

المبحث الرابع

آفاق عملية السلام بعد رحيل «حافظ الأسد»

من أبرز القضايا التى ستحدث جدلاً صاخبًا ومستمرًا طيلة الأشهر القادمة بعد رحيل الأسد، قضية السلام على الجبهة السورية واللبنانية فى مواجهة إسرائيل. فتغيير القيادة فى الدولة أحد الأسباب الرئيسية الدافعة لإحداث هذا الجدل وما يستتبعه من قلق حقيقى، بغض النظر عن القيادة الجديدة وتوجهاتها.

فالثابت فى أدب التحليل السياسى أن القيادة الجديدة لا تستطيع التحرك بإيجابية كبيرة فى النطاق الخارجى، إلا بعد استقرار الأوضاع الداخلية واستيعاب المتغيرات الدولية والإقليمية. وينطبق ذلك على النظم الديمقراطية المستقرة، والنظم التحولية أو غير الديمقراطية. إلا أن الأمر قد يختلف بعض الشىء فى النظم غير الديمقراطية، بحسبان أن وصول قيادة جديدة للحكم يستلزم معه خلق حالة من الاستقرار الداخلى يتم بموجبه السيطرة على حالة «التوثب» الكامنة لدى البعض لاقتناص السلطة. فالسيطرة على الأوضاع الداخلية تعطى قوة دافعة للتحرك الإيجابى فى المجال الخارجى.

لذلك فإنه من الثابت أيضًا فى التحليل السياسى، أن بعض القيادات الجديدة تلجأ للتفاعل الإيجابى والسريع مع الأوضاع الخارجية لخلق تعبئة داخلية حول القرارات فى المجال الخارجى يتبعها حالة من حالات التوحد خاصة إذا ما كانت هناك قضية وطنية قد تتمثل فى تحرير الأرض من محتل أو غاصب. وفى الأغلب الأعم فإن هذا الخيار أو ذاك يتوقف على الظروف والملابسات التى يتولى فيها القائد الجديد وقدراته الشخصية ومحددات حركته فى الداخل والخارج. فهل ينتظر القائد الجديد حتى يسيطر على مقاليد الأمور فى الداخل لكى يتجه إلى نشاط فعال فى الخارج، أم ينطلق لسياسة خارجية نشيطة يتحقق من خلالها توحد داخلى للجسد السياسى؟

هذا هو السؤال الذى يحدد آفاق عملية السلام بعد رحيل الرئيس حافظ الأسد وتولى بشار الأسد قيادة الدولة السورية.

فالأوضاع الداخلية فى سوريا تشير إلى احتمال كبير بعدم الاستقرار السريع فى ضوء تولى بشار الأسد فى وقت لم يكن فى الحسبان أن يتم على هذا النحو السريع. ومن ثم فإن على «بشار» أن يبذل بهذا ويعطى أولوية كبيرة للسيطرة على مقاليد السلطة فى سوريا، وأن يحدث حالة من الانسجام والتناسق بين التيارات المختلفة حتى يستوعب هؤلاء وجوده على قمة الدولة دون مزاحمة أو تحد له. ولا شك فى أن هذا الوضع قد يأخذ أولوية كبيرة منه وقتًا وجهدًا قد لا يتناسب معهما أن يعطى أولوية للخارج وبخاصة إزاء عملية السلام مع إسرائيل. بل إن عطاءه الإيجابى والنشيط فى الخارج وفى مقدمة ذلك عملية السلام يتوقف على درجة سيطرته على الأمور. فبالقدر الذى يسيطر على الداخل، بالقدر الذى ستكون له فعالية فى إدارته لعملية السياسة الخارجية السورية، وهنا فإن كيسنجر يعلق على رحيل الأسد بالقول بأن الرئيس القادم لسوريا بعد حافظ الأسد يستطيع أن يوقع اتفاقية السلام فى ضوء سيطرته على الوضع الداخلى بسرعة.

ويكشف ذلك على أن هناك أولوية مطلقة للرئيس الجديد بشار الأسد، للأوضاع الداخلية قبل أن ينطلق إلى «قطار» عملية السلام.

وعلى الجانب الآخر، فإن قرب انتهاء مدة الرئيس الأمريكى كلينتون قبل نهاية هذا العام (٢٠٠٠م)، ورغبته الجارفة فى إنجاز اتفاق ملموس خلال الفترة المتبقية لرئاسته للولايات المتحدة، قد تكون دافعًا له لمساندة الرئيس الجديد وتثبيت أقدامه حتى يساعد ذلك فى دفعه وتشجيعه على الدخول فى مفاوضات وتوقيع اتفاقية مع إسرائيل ينتهى بموجبها حسب التقدير الأمريكى أكبر عقبة فى خلق حالة مستقرة فى منطقة «الشرق الأوسط».

كذلك فإنه من ناحية ثالثة، يلاحظ أن الخروج الإسرائيلى من الجنوب اللبنانى دون قيد أو شرط أو حتى اتفاق، تحت ضغوط المقاومة اللبنانية، يعطى لسوريا الجديدة فرصة لتقوية موقفها التفاوضى مع إسرائيل، ويساعد على «تسهيل» التشدد الإسرائيلى للوصول إلى «المنطقة الوسط» فى التفاوض، بحيث يتم الانسحاب الإسرائيلى الكامل

من الجولان فى ضوء ترتيبات أمنية تضمن أمن إسرائيل وسلامة الأراضى السورية واستقلالها تمهيداً لإقامة علاقات طبيعية بعد ذلك بين الطرفين السورى واللبنانى من جانب، وإسرائيل من جانب آخر. وهنا يجب الإشارة إلى أن السمة الجوهرية التى تركها نظام حافظ الأسد هى قبول منطق التفاوض مع إسرائيل والاقتناع بأهمية وجدوى عملية السلام العربى الإسرائيلى بدلاً من «الصراع» العسكرى.

* وفى المعنى الأخير: فإن هناك كثيراً من المعطيات الإقليمية والدولية التى تشجع على استمرار عملية السلام على الجبهة السورية واللبنانية فى ظل القيادة الجديدة لسوريا، والأمر يتوقف على قدرة الرئيس الجديد بشار الأسد على بسط نفوذه وإحكام الهيمنة على تقاليد الحكم فى البلاد - بسرعة. وكلما أسرع فى تحقيق ذلك، فإن الأولوية التالية هى الدخول فى عملية السلام خلال الأشهر القادمة وقبل انتهاء فترة كلينتون. فضلاً عن ذلك، فإنه بالقدر الذى يهيمن الرئيس «الأسد الثانى» على الأوضاع الداخلية وبسرعة، بالقدر الذى يمكن دخوله لعملية السلام وإنهاء المفاوضات المعلقة والوصول إلى اتفاقية عادلة دون تنازلات على الإطلاق. أما إذا لم يستطع الرئيس بشار إنجاز السيطرة الداخلية خلال الأشهر الثلاثة القادمة فإن هناك شكوكًا كبرى حول إمكانية دخول سوريا لمفاوضات مع إسرائيل والسير فى طريق الراحل حافظ الأسد قبل عام على الأقل بعد أن تتم الانتخابات الأمريكية فى نوفمبر القادم (٢٠٠٠م)، وتولى الرئيس الجديد فى نهاية يناير ٢٠٠١م، وفترة انتقالية يتم فيها استيعاب الرئيس الأمريكى القادم للملفات!! والاحتمالات كلها مفتوحة أمام الرئيس بشار الأسد وكلها محكومة بالزمن والإرادة والمتغيرات المحيطة.

***